

الفنون الشعبية في فلسطين

د. حسين جمعة*

غالبًا ما يكون لدور النشر التي تعني دورها الوطني ووظيفتها القومية دور مهم في ترويج الكتب والدوريات ذات الألق الأصل، التي تحمل في أعطافها كل ما هو متميز ومفيد في الحياة العامة، والثقافة الروحية والمادية في المجتمع. وتأتي دار الشروق على رأس المؤسسات الخاصة التي تتصدى لمهمتها الوطنية على أحسن وجه، وأفضل سبيل.

تقول وزارة الثقافة الفلسطينية في افتتاحية الطبعة الثالثة إن هذا الكتاب: «يجمع الفرح الفني إلى عمق الانتماء الوطني». أما الدكتور أنيس صايغ مدير مركز الأبحاث الفلسطيني فيرى أن المهمة: «أن يقدم الكتاب للقارئ صورة شاملة وافية عن الملامح الإنسانية لهذه الفنون، وقد تجمعت خطوط هذه الملامح من درس ما توافر للمؤلفة من معلومات وأمثلة»، وفيما يتعلق بالمؤلفة التي تربت على عشق التراث الشعبي الفلسطيني وموسيقى أشعاره وموابعه منذ طفولتها المبكرة، فقد وجدت أن فلسطين: «مرتفع خصب لمختلف الفنون الشعبية، لما لجغرافيتها من تأثير على جميع أوجه الفن فيها؛ فطبيعة أرضها الجبلية والسهلية والصحراوية تؤثر على سكانها في تفسيرهم للجمال، كما أن لجغرافيتها تأثيراً على تاريخها.. فكانت محطاً لمختلف الشعوب والجيوش التي كانت تمر بها.. مما جعل تيار مدنيات مختلفة ينتشر فيها». وأظهرت المؤلفة هدفها من تدشين كتابها بما يلي:

- إحياء الفنون الشعبية الفلسطينية والمحافظة على جزء كبير منها مهدد بالزوال.
- خلق رابطة قوية بين أنفسنا وشعبنا، بين أمتنا وبين ماضيها وأرضنا خصوصاً في مثل هذا الظرف المتأرجح الذي نعيش فيه.
- الإسهام في ملء زاوية مهمة من زوايا مكتبتنا الفنية.
- الكشف عن مادة إبداع موسيقيينا، ومصدر إلهام للحنين.
- حث طائفة من الباحثين الموسيقيين على استكمال هذه البحوث التي تشكل نواة صغيرة، حفاظاً على

الفنون الشعبية ووفق هذا المنظور رأيت أن مواجهة المشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين لا يتوقف عند جانب الصراع العسكري، وإنما هو أعمق من ذلك؛ إنه صراع حضاري وفكري يحتاج إلى أدوات إقناع فريدة ووسائل ثقافية رفيعة تستبطن زيف الدعوات الصهيونية، وتكشف عورتها وتهافت ادعاءاتها المزورة، التي تقوم على اجتثاث الشعب الفلسطيني من جذوره، وطمس هويته الثقافية وسرقة تراثه وتراثه، وتجريده من إنسانيته، وإظهاره كطائر على وطنه فلسطين، ومنقطع عن أصالته وأثالته. وقامت الدار مستندة إلى هذا الإدراك العميق بنشر أو إعادة نشر خمسة مصنوعات في شتى ألوان التراث الشعبي الفلسطيني، وهي: «ديوان الدلعونا الفلسطيني» للدكتور عبداللطيف البرغوثي، و«الدار دار أبونا» للدكتور شريف كنانة، و«ديوان العتابا الفلسطيني» للدكتور عبداللطيف البرغوثي، و«مدخل لدراسة الفولكلور / دراسات في التراث الشعبي الفلسطيني» لنبيل علقم، و«الفنون الشعبية في فلسطين» ليسرى جوهريّة عرنيطة، الذي سيكون محور حديثنا في هذه المقالة التعريفية.

بين أيدينا الطبعة الرابعة من هذا الكتاب القيم، وهو من بواكير الكتب التي تناولت التراث الشعبي في فلسطين، صدرت طبعته الأولى عن مركز الأبحاث الفلسطيني عام 1968. وأحدث ضرباً من الحراك النشط في هذا الحقل من الأبحاث، مما يشير إلى أهميته وعظيم أثره وتأثيره، وأنه من المؤلفات اللافتة والمتجددة، وليس من الأوراق العابرة،

* ناقد وباحث أردني



وغيرها، كما جرى استعراض سريع لأنواع الدبكة وطرق الرقص الشعبي.

وخصّصت عرنيطة القسم الثالث "لتنويع الأغاني الشعبية الفلسطينية" معززة ذلك بتثبيت لائحة بأسماء الأغاني المدونة في هذا المصنف. وفي القسم الرابع توسّعت المؤلفة في الحديث على الأفراح الشعبية، والعادات السارية في حالات الخطبة والزواج، وما يتخلل ذلك من إجراءات متبعة بأدق التفاصيل سواء أكان ذلك في القرية أو المدينة عند المسلمين كما هو الحال عند المسيحيين. أما القسم الخامس فقد تمّ تكريسه لإبراز المهرجانات الدينية عند جميع الطوائف والمذاهب المتعايشة والمتآخية في فلسطين، ومشاركة الجميع في هذه المهرجانات في أوقاتها المحددة، لأنّها تستمد حصانتها واستمراريتها من امتداد تاريخها الطويل الذي يعود إلى ما قبل الميلاد بكثير.

تجسد الأمثال الشعبية ملامح الشخصية الوطنية، وتقدم لوحة حياة عن سبل العيش والحياة الاجتماعية، فكان لا بدّ من حصر هذه الأمثال والمقامات التي تقال فيها. وهكذا جاء القسم السادس من الكتاب زاخراً بإيراد الأمثال العامية التي ترد في جميع المناسبات والحالات المعيشية والاجتماعية. ومن هذه الأمثال ما يتعلق بالشهور والفصول، وبالأعياد الموسمية، والأمثال المرتبطة ببعض المدن الفلسطينية، وما تزخر به هذه

تراثنا العربي، وأملا بإتيان ما هو أعظم وأجل شأنًا.

تحضر هذه الطبعة في 320 صفحة من القطع الكبير، ويتوزع المصنف في تسعة أقسام تبدأ بـ «خصائص ومميزات الموسيقى العربية»، وتنتهي بإبراز «أشكال هندسة البيوت في قرى فلسطين»، مروراً بالحديث على الآلات الموسيقية المتنوعة وإيراد جميع أقسامها وأدواتها، وما يترافق وهذه الآلات من رقص وغناء ودبكة، وتنويع الأغاني الشعبية المصاحبة لهذه الأشكال الفنية.

تتحدث المؤلفة باقتدار في القسم الأوّل عن الموسيقى العربية وطبيعتها وتجاوباتها المتنوعة، وأهمها: التجاوب الجسدي والتجاوب العقلي والتجاوب العاطفي، ونستشف من هذا الدرس مدى المعرفة العميقة للمؤلفة بالموسيقى وملاحمها المختلفة، والمقدرة على استثمار هذه المعرفة للعبور إلى حصر الأغاني الشعبية، وجلاء أوزانها وألحانها؛ مما أتاح لها التلوج إلى روح الأغنية الشعبية والمواويل المرافقة لها، ومدى تعبيرها عن تطلعات الشعب وأمانيه.

وجاء القسم الثاني «الآلات الموسيقية» استكمالاً للقسم الأول وتبياناً للآلات والأدوات المستخدمة في الموسيقى الشعبية، وتوزيعها وفق الآلات المرافقة لها، مثل: الآلات الموسيقية والوترية وآلات النفخ

الفلسطيني الثري بتراثه الشعبي. سارت يسرى جوهريّة عرنيطة بعناد أدبيّ، وتحصين داخلي ودافع وطنيّ ببحثها العلميّ الرصين والمرهق، ومتابعة الأرشيف والتجارب الحيّة ومقابلة كبار السن والعارفين بالتراث لكشف الدرر الكامنة والخافية تحت الحجارة وبين الطحالب والرواسب، بعد أن أبحرت في محيط الفولكلور الوطني الفلسطيني، وغاصت في الأعماق، وخرجت بالجواهر الثمينة والكنوز الرصينة. وأملي كبير أن تجد المؤلّفات الفلوكلوريّة الأخرى المذكورة أعلاه تقريظاً أو عرضاً لها في الدوريات المحليّة والعربيّة، وذلك لأهميّة هذه الأعمال، ومغزى محمولاتها الفكرية والوطنية في هذا الوقت بالذات، لردّ الدعاوى الصهيونية الفاسدة وصدّ التيارات المنخدعة بالدعاية الصهيونية القذرة القائمة على تزييف الحقائق وتزوير معالم التاريخ وسجلاته الفعلية.

الأمثال من قيم ومواضع عامة، كما عقدت المؤلّفة فصلاً في ارتباط الأمثال العامية بالموسيقى، التي تربّت عليها وعلى ألحانها وأنغامها. وفي القسم السابع اكتفت يسرى عرنيطة بتسجيل أسماء الموسيقيين في فلسطين في الفترة ما بين 1870-1920. أما في القسم الثامن فقد عززت معرفتها بالتراث الفلسطيني بتدوين أنواع الأزياء الشعبيّة وأشكالها المختلفة وفق المناطق الفلسطينيّة، وذكرت جميع أسماء الألبسة المنوعة وأماكن تواجدها والبلدات التي اشتهرت بها، وضبطت ضروب المأكولات والمشروبات الشعبيّة، وأوردت المناسبات التي يكثر فيها تحضير هذا الطعام أو ذاك الشراب. وتوجت الكاتبة مؤلفها القيم بعرض لمحة وصفية لأشكال بيوت القرى الفلسطينيّة وكيفية هندستها وبنائها، وما تبوح به هذه الأشكال من دلائل على طرائق العيش وسبل الحياة في الريف

